بقلم : الدكتور
محمد الدسوقي

الحج الأكبر

وروى ان الامام علياً كرم الله وجهه ورضى الله عنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء إلى الجبانة ، فجاء رجل فأخذ بلجامها وسأله عن يوم الحج الأكبر ، فقال : هو يومك هذا ، خل سبيلها .

ويقول الامام الشوكانى في تفسيره : ولا يخفاك أن الأحاديث الواردة في كون يوم النحر هو يوم الحج الأكبر هى ثابتة في الصحيحين ، وغيرهما من طرق فلا تقوى لمعارضتها هذه الروايات المصرحة بأنه يوم عرفة .

وإذا ترجح ان يوم الحج الأكبر هو يوم النحر ، وليس يوم عرفة أو أيام منى أو أيام الحج كلها ، فماذا كان فيه من احداث ، وماذا كان فيه من مناسك ؟

إن سورة التوبة من أواخر ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن الربع الأول منها نزل متأخراً عن بقيتها وإن جاء ترتيبه في مقدمتها ، وهذا القدر الذى نزل متأخراً ، يتضمن انهاء العهود التى كانت قائمة بين المسلمين والمشركين حتى ذلك الحين سواء كان هذا الانتهاء بعد أربعة أشهر لمن كانت عهودهم مطلقة أو الناكثين لعهودهم ، أو كان بعد انتهاء الأجل لمن كانت لهم عهود مقيدة ، ولم ينقضوا المسلمين شيئاً ، ولم يظاهروا عليهم أحداً ..

ومن بين ما تضمنه كذلك عدم السماح للمشركين بالطواف بالمسجد الحرام أو عمارته في صورة من الصور بعد ذلك ، خلافاً لما كان عليه العهد المطلق بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمشركين ان يأمن بعضهم بعضاً في البيت الحرام والأشهر الحرم مع بقائهم على شركهم .

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وان الله مخزى الكافرين ، واذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر ان الله برىء من المشركين ورسوله فان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب اليم ، الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ان الله يحب المتقين ، فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصـــد ، فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » .

هذه الآيات التى وردت فى مطلع سورة براءة تبين ما سبقت الاشارة إليه من انهاء العهود مع المشركين ، والتعبير بكلمة براءة فى مستهل السورة وتكرارها في الآية الثالثة يوحى بانهاء مبدأ التعاقد مع المشركين بعد ذلك ، لأن الكلمة في مدلولها اللغوى تعنى قطع كل اواصر الصلات والعلاقات ، وهى من ثم كما تدل على انهاء العهود التى كانت قائمة بين المؤمنين والمشركين تمنع من الاقدام على ابرامها مستقبلا ، لأنه لا يمكن أن تقوم جسور التقاء بين الايمان والشرك ، والحق والباطل والنور والظلام .

وهذه البراءة التى انهت ما كان بين المؤمنين والمشركين من عهود يرى بعض العلماء أنها تشمل كل ألوان العهود المؤقتة منها والمطلقة ، فقد روى عن مجاهد قوله : وهذا تأجيل للمشركين مطلقاً ، فمن كانت مدة عهده اقل من أربعة أشهر رفع اليها ، ومن كانت أكثر حط إليها ، ومن كان عهده بغير اجل حد بها ، ثم هو بعد ذلك حرب لله ولرسوله .

ويرى آخرون أنها خاصة بذوى العهود المطلقة غير المؤقتة ،

● جاء ذكر يوم الحج الأكبر في الكتاب العزيز في الآية الثالثة من سورة التوبة أو براءة ، ولهذه السورة عدة اسماء ـ سوى براءة والتوبة ـ لا تخرج في مدلولها عن معاني الهلاك وفضح اسرار المنافقين والمشركين وما يبيتونه من كيد وحقد على الاسلام والمسلمين وقد تباينت الروايات في تحديد هذا اليوم ، فمنها ما يذهب إلى أن المقصود به يوم عرفة ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحج عرفة» .

ومن الروايات ما يذهب إلى ان يوم الحج الأكبر يقصد به أيام الحج كلها أو أيام منى فقط ، ولكن الواضح ان هذا اليوم هو يوم النحر ، لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع وقال : هذا يوم الحج الأكبر ●

● وقف النبي صلى الله عليه وسلم

يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع وقال: هذا يوم الحج الأكبر

● إن الأمر بالقتال حتى يؤمن الناس خاص بمشركي العرب

حتى يكون مهبط الوحي وبيئة الدعوة الأولى طاهرة من أرجاس الشرك والوثنية

أو من كان له عهد دون أربعة أشهر ، فيكمل له أربعة أشهر ، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان ، لقوله تعالى : فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، ولما اذاعه علي بن أبى طالب في عام الوفود نائباً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعهده إلى مدته ، ويعقب الامام ابن كثير على هذا بقوله : وهذا أحسن الأقوال وأقواها .

لقد كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض قبائل العرب عهود خاصة ، منهم من رعاها ، ومنهم من خاس بها ، وكان بينه وبين العرب كافة عهد عام ، ان يكون البيت الحرام مثابة للناس وأمناً ، يشترك في قصده والحج إليه جميع العرب فلم يكن يسع المسلمين حينئذ أن يمنعوا أحداً من الحج سواء في ذلك من آمن بالله ورسوله ، ومن اشرك ، ومن رعى حرمات البيت وعظم شعائره ، ومن كفر به وصد عنه ولا ريب أن في هذا بعض التناقض والتعارض ، فلا يستساغ أن يجتمع حول البيت الحرام مؤمنون وكافرون ، من لهم قيم سامية يجاهدون في سبيلها ومن درجوا على أعراف فاسدة يقاتلون للحفاظ عليها وللحيلولة دون أن يغمر النور ارجاء الأرض وينقذ الناس من جهالة الشرك وضلاله ، لذلك كان لا مناص من اتخاذ موقف حاسم من الشرك واتباعه حتى يتحقق للأمة التى نصرها الله في مواطن كثيرة أن تنهض برسالتها المقدسة في تبليغ دعوة الاسلام إلى الناس قاطبة ، لا يحول بينهم وبين هذا حائل من كيد أو نفاق أو شرك ، فنزلت آيات سورة براءة في العام التاسع من الهجرة لتعلن انهاء تلك العهود مع المشركين ، فهم بطبيعتهم لا يرعون عهداً إنهم « لا يرقبون في مؤمن إلا ولاذمة » إنهم نكثوا أيمانهم ، إنهم يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم واكثرهم فاسقون .

إن من كانوا على هذا الخلق من نكث العهد ، وقطع الرحم ، واظهار خلاف ماتنطوى عليه قلوبهم وضمائرهم ، ويهتبلون كل الفرص للاساءة والعدوان ، لا سبيل إلى أن يكون بينهم وبين المؤمنين برسالة الحق والعدل والاخوة والمساواة تعايش أو لقاء فلابد من اجراء حاسم ، وتطهير حازم ، والا كانت ثورة الاسلام على الشرك ثورة وقتية غير مفضية إلى غايتها ، ولا واصلة إلى مداها .

ولأن الاسلام دين عدالة مطلقة ، ولا يأخذ اعداءه على غرة لم يكن انهاء العهود فور نزول الآيات ، وإنما منح المشركون مهلة وهى أربعة أشهر من يوم أن بلغهم الامام علي في يوم النحر ، ولذا وصفت هذه الأشهر بالحرم مع ان منها ما لا يعد ضمن الأشهر الحرم المعروفة ، وذلك لحرمة قتال المشركين فيها ، وتمتعهم بالأمن والسياحة في الأرض كيف يرغبون .

ويعلل بعض المفسرين منح هذه الأشهر للمشركين لتكون فرصة تفكير بالنسبة لهم ، ومراجعة لما كان منهم ، وما يمكن أن يتخذوه من قرار بشأن انفسهم ، هل يؤثرون الهداية على الضلالة ، أو يظلون على وثنيتهم وشركهم ، فيتعرضون لما أمر الله به بعد انقضاء الفترة الزمنية التى منحت لهم ؟ «فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » .

لقد روى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قفل من تبوك

من حديث الحج في القرآن الكريم

أراد الحج ، لكنه قال : انما يحضر المشركون فيطوفون عراة ، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك . فأرسل أبا بكر ليحج بالناس ، وكان ذلك في العام التاسع عام الوفود ، فلما خرج أبو بكر بمن معه من المسلمين ، وفصل في البيت الحرام انزل الله عز وجل اوائل سورة التوبة فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً كرم الله وجهه ، وعهد إليه برسالة أمره أن يذيع بها في الناس حين يجتمعون يوم النحر بمنى ، فخرج علي حتى أدرك أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، فلما رآه أبو بكر قال له : أمير أنت أم مأمور ؟ قال علي : بل مأمور ، وأنبأه بما جاء به من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك على منازلهم التى كانوا عليها في الجاهلية ، وما ورثوا عن آبائهم من تقاليد وعادات تنافى الايمان والتوحيد ، ومنها الطواف عراة بالبيت ، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس ، يتلو قوله تعالى : « براءة من الله ورسوله ... » فقرأ عليهم نحو أربعين آية من مطلع السورة ، ثم صاح فيهم منادياً ، أيها الناس ، إني رسول رسول الله إليكم ، انه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فعهده إلى مدته .

وهذه المبادىء الأربعة التى أعلنها الامام علي في هذا اليوم نيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل العزة والحزم والحكمة ، وتعلن انتهاء دولة الشرك ومفاهيمها الفاسدة في الجزيرة كلها ، وأن السيادة للاسلام وحده في هذه الأرض الطيبة ، وأن البيت الحرام لا تدنسه بعد اليوم مواريث الجاهلية وأعرافها المنحرفة .

ان هذه المبادىء وما اشتملت عليه من قيم وما ترشد إليه من أحكام تعد دستوراً للأمة الاسلامية في علاقتها بغيرها من الأمم أنها تؤكد حقيقة خالدة ، وهى ان الايمان الصحيح وحده طريق النجاة يوم لقاء الله ، وأن الكفر سبيل الضلال والبوار وسوء المصير ، ويمكن القول بأن تلك المبادىء تدور حول المعانى التالية

أولا : الايمان بالله .. إن الايمان بالله يجعل للمؤمنين هوية خاصة تميزهم عن سواهم ، فهم به لا يعرفون هوادة في الحق ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، ولا يقيمون لوشائج القربى والرحم معنى إذا تعارضت مع ما وقر في قلوبهم ، وخضعت له مشاعرهم وجوارحهم ، إنهم بالايمان يرفضون كل أسباب المهانة من ضعف فى العقيدة ، أو ضعف فى التراحم والتلاحم ، أو ضعف فى العلم والمال والسلاح ، إنهم بالايمان يعيشون أعزة على الكافرين اذلة على المؤمنين ، يجودون بأنفسهم وأموالهم فى سبيل أن تكون كلمة الله هى العليا ، والا يكون للباطل صوت يسمع أو راية تخفق ، إنهم بالايمان يحيون حياة كريمة مطمئنة ، وبدونه يفقدون الحياة كما ينبغى أن تكون .

إذا الايمان ضاع فلا حياة ولا دنيا لمن لم يحيي ديناً

وقد أومأ إلى هذا المعنى المبدأ الأول الذى نفى أن يدخل الجنة كافر ، إن اعلان هذا المبدأ في تلك الظروف التى كانت تكتنف الدعوة الاسلامية يفصل بين المؤمنين والكافرين ، ويؤكد أن الله جلت حكمته لا يبيح دار رضوانه ومنزلة تكريم لمنكر للحق ومحارب للخير ، وعاكف على الأوثان والأصنام ، وان زعم أنها تقربه إلى الله زلفى .

ثانياً : سيادة الدولة الاسلامية .. إن المسلمين بالاسلام يجب ان يكونوا هداة وقدوة حسنة ، وهم لن يصلوا إلى هذا بغير ان تكون لهم قوة من ايمانهم وعدتهم ترهب أعداء الله ، وتكفل لهم السيادة والقيادة في هذه الحياة ، والبيت الحرام وهو قبلة المسلمين في كل مكان يمثل الغاية التى تهفو اليها كل الأفئدة ، وتتجه اليها كل الضمائر والمشاعر ، فحمايتها من المفاسد والمباذل ، وأهل الشرك والباطل هى حماية لمفهوم السيادة من الانتقاص والاعتداء ، فمنع المشركين من الحج بعد هذا العام ، ومنع الطواف بالبيت في عري ، فيه ـ فضلا عن محاربة أعراف الجاهلية في تعظيم البيت ـ تحقيق معنى سيادة الاسلام والمسلمين ، وأن عليهم أن يقفوا بالمرصاد لكل من يحاول العبث ، أو يعتدى على حرمة البيت فالمشرك بحجه معتد ، ومن طاف بالبيت وهو عريان معتد ، وإذا فرطت الأمة في رمز وحدتها ، وقبلة صلاتها ، وتركتها مباحة لكل عابث ومفسد ، فقد فرطت في وجودها وكرامتها وعزتها ..

ثالثاً : احترام العهود مع من يحترمها .. إن العهود في الاسلام لا يجوز أن تكون سبباً للانتقاص من سيادة الأمة وكرامتها ، والوفاء بها فى غير هذه الحالة واجب ولا يجوز نقضها ، ما دام من عاهدناه قد استقام على شروط العهد ، ولم يخرج عليها ، وهذا هو الحق والعدل .

ومبادىء احترام العهود في الاسلام تفرض على كل المسلمين أن يكونوا أقوياء لأن منطق الحياة البشرية يجعل الضعفاء يخضعون للعهود وينزلون عند إرادة الأقوياء ، فيكوُن احترامهم لها من باب الذلة والصغار ، لا من باب العزة والكرامة ، ولذا كان على المسلمين أن يكون احترامهم للعهود نابعاً من ايمانهم الذى يأبى الخضوع إلا لله وحده ، فعليهم من ثم أن يكونوا أشداء أقوياء ، ولكنهم لا يعرفون الظلم أو الاعتداء ونكث العهود .

وقد يقال إذا كان الاسلام يقف من العهود واحترامها هذا الموقف فلماذا كانت تلك البراءة من عهود المشركين ، وكان الأمر بقتلهم وأخذهم وحصرهم بعد مرور الأشهر الحرم التى سمح لهم فيها بالسياحة فى الأرض ؟

- **إنه لا يدخل الجنة كافر ..**
ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان

- **إن حماية الجزيرة العربية من عوامل الإنحراف مسؤولية المسلمين كافة لتظل قبلتهم مصدر اشعاع بنور الحق ، ومهبط وحي دينهم مصدر إلهام للإعتصام بحبل الله**

إن هذا الموقف لا ينقض المبدأ العام للاسلام في العهود والوفاء بها ، لأن المشركين من جهة نكثوا عهودهم ، وأتوا من الأعمال ما يجعلهم حرباً على المسلمين والاسلام ، ومن جهة أخرى كانوا يقترفون من مفاسد الجاهلية حول البيت ما يجعل ثورة الاسلام على الشرك غير مفضية إلى غايتها فى اقتلاع كل جذور الوثنية ، وتهيئة المناخ الملائم لانطلاق دعوة الاسلام من الجزيرة العربية إلى بقاع الأرض وأرجائها ، ولعل هذا يفسر ما ورد من اثار حول نفي عدم اجتماع الاسلام وغيره من الديانات والملل في الجزيرة ، وأن الأمر بالقتال حتى يؤمن الناس خاص بمشركى العرب ، حتى يكون مهبط الوحى ، وبيئة الدعوة الأولى طاهرة من أرجاس الشرك والوثنية ، ولديها في كل زمان الطاقة التى تبشر بالخير ، وتقاوم الشر ، وتعلى كلمة الله في الأرض ، وهذا يعنى أن حماية الجزيرة من عوامل الانحراف مسؤولية المسلمين كافة : لتظل قبلتهم مصدر اشعاع بنور الحق ، ومهبط وحي دينهم مصدر إلهام للاعتصام بحبل الله ، وبذلك يبقى للاسلام كيانه ومكانه إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها .

هذه هى الحادثة التى كانت في يوم الحج الأكبر ، ونزل بشأنها قرآن يتلى ، لقد كانت حداً فاصلا بين الايمان والشرك ، وقضت على الوثنية والجاهلية قضاء مبرما ، ومكنت لدين الله في الأرض ، وأكدت أن العزة والسيادة لله ولرسوله وللمؤمنين .

مناسك الحج في يومه الأكبر :

أما مناسك الحج في يومه الأكبر فان المسلم بعد أن يفيض من المزدلفة إلى منى يوم النحر قبل طلوع الشمس ، ويبدأ أولا بعد الشروق برمى جمرة العقبة ، وهذا التوقيت للرمى مندوب ، فقد ذهب بعض الفقهاء إلى ان وقت الرمي يبدأ بطلوع فجر يوم النحر ، وأجاز الشافعي وأحمد الرمى في منتصف ليلة العيد ، ويمكن الأخذ بهذا الرأى في عصرنا الحاضر ، تيسيراً على الحجاج الذين يتضاعف عددهم عاماً بعد عام ، وفيهم النساء والضعفة من الشيوخ والمرضى .

ويمتد وقت الرمى حتى فجر اليوم الثانى عند أبى حنيفة ، ويكره تأخيره عن زوال يوم العيد عند مالك .

وترمى جمرة العقبة بسبع حصيات ، وهذه الجمرة تسمى أيضاً بالجمرة الكبرى ، وهى أول الجمرات من جهة مكة .
وبعد الرمى ينحر الحاج الهدى ، ثم يحلق أو يقصر ، وبالانتهاء من الرمى والنحر والحلق أو التقصير يكون التحلل الأول ، ويباح للمحرم به ما كان محظوراً عليه في اثناء الاحرام سوى النساء .

ويسن للحاج بعد ذلك أن يتطيب ويتوجه إلى مكة ليطوف طواف الافاضة أو طواف الزيارة ، وهو من أركان الحج ، ثم يرجع إلى منى للمبيت بها في أيام التشريق الثلاثة ، فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى .
وبطواف الافاضة يكون التحلل الأكبر ، وبه يباح للمحرم كل ما كان محظوراً عليه من قبل .

ويجوز للحاج أن يؤخر طواف الافاضة إلى أن يرمي الجمرات في أيام التشريق .

على أن ترتيب تلك المناسك كلها في يوم النحر سنة ، فيجوز الحلق قبل الرمى ، والذبح بعد الحلق ، وقد روى ان رسول الله صلى اله عليه وسلم خطب الناس يوم النحر خطبة علمهم فيها مناسكهم وقال لهم في ختامها : « اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع ، فلا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » .
ووقف الناس عقب تلك الخطبة يسألون نبيهم فقال رجل : لم أشعر (أى لم أنتبه ولم أدر) فحلقت قبل أن أذبح ؟ فقال : اذبح ولا حرج . وقال آخر : لم أعلم فحلقت قبل أن أرمي ؟ وآخر : نحرت قبل أن أرمي ؟ وآخر : أفضت قبل أن أرمي ، فقال في كل ذلك : ارم ولا حرج . وقال آخر : أفضت قبل أن أذبح ؟ وآخر : رميت بعد أن أمسيت . فقال لكل منهما : لا بأس .

قال عبد الله بن عمرو بن العاص : فما سئل الله صلى الله عليه وسلم يومئذ عن شيء قدم أو أخر إلا قال : افعل ولا حرج .
إن الاسلام دين اليسر ورفع الحرج والضيق ، وهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على هذا اليسر ، ليعلم الأمة ان ديننا متين ، وان على المسلم أن يوغل فيه برفق ، وأن يؤمن انه لن يشاد هذا الدين أحد الا غلبه ، فليكن القصد والاعتدال هو منهجنا لأنه منهج الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، والاسلام دين الفطرة ، ولذلك كان دين البشرية كافة .

وبعد فهذا يوم الحج الأكبر وما كان فيه من أحداث ، وما يفعله فيه الحاج من مناسك ، وفى هذا وذاك ما يذكر المؤمنين بمناط عزتهم وملاذ قوتهم وهو الاعتصام بحبل الله والتناصر في سبيل الحق ، والتعاون على البر والتقوى «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون» (آل عمران : ١٠٣) .